

الموسوعة الأهم في تاريخ الخليج

د. محمد صابر عرب

لقد قدّم جمال زكريا (١٩٣٢-٢٠٠٧م) خدمة جلييلة لتاريخ العرب الحديث والمعاصر حينما أنجز مشروعه العلمي الرصين «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر»؛ الذي جاء في خمسة مجلدات تعد في مجملها عملاً أكاديمياً يصعب أن ينجزه شخص بمفرده. والمؤلف تكونت معارفه التاريخية في سياق اتسم بالعمق والدقة، لذا جاءت هذه الموسوعة بمثابة المصدر الأكثر أهمية في تاريخ الخليج العربي.

لا أعرف حينما شرع الدكتور جمال زكريا قاسم في كتابة المجلد الأول من هذه الموسوعة "الخليج العربي في عصر التوسع الأوربي الأول ١٥٠٦ - ١٨٤٠" أنه كان يعتزم مواصلة مشروعه الكبير، ولا أدري لماذا لم أسأله وقد كنت من أقرب الأصدقاء إليه؟!

أعتقد أن المؤلف منذ بداية ستينات القرن الماضي كان يعتزم القيام بمشروع علمي متكامل، فقد كان تاريخ الخليج العربي حتى هذا التاريخ موضع عناية الأوربيين وخصوصاً كتابات الرحالة والعديد من العسكريين الذين وفدوا على المنطقة، منذ فترة مبكرة من التاريخ الحديث وقد استهوتهم فكرة الكتابة؛ وخصوصاً بعد أن اعتزلوا العمل السياسي والعسكري.

لعل مما يميز هذا العمل العلمي الكبير أن المؤلف قد استقى معلوماته من مصادر متنوعة وأصيلة، ابتداء بما كتبه جورج لوريمر Lorimer في موسوعته الشهيرة، مروراً بوثائق شركة الهند الشرقية البريطانية وخصوصاً ما عرف منها بسجلات الوكالات والتي رمز لها باختصار F.R، هذا الأرشيف الذي يحتفظ بالعديد من الوثائق الخاصة بشئون الخليج والتي كان يكتبها الوكلاء الوطنيون التابعون للمقيم البريطاني وكان مقرهم الرئيسي في مدينة الشارقة، وقد حفلت تلك التقارير بمعلومات هائلة عن مشيخات الساحل، إضافة إلى الكويت وقطر والبحرين، وكذا ما كان يكتبه قناصل الدول في مسقط، كما اعتمد المؤلف على وثائق حكومات الهند وكذا تقارير الوكالات البريطانية في كل من البصرة وبوشهر وبندر عباس.

لقد تنوعت مصادر هذا العمل العلمي الكبير بشكل مذهل بما في ذلك وثائق الخارجية الفرنسية وخصوصاً وثائق وزارة المستعمرات

الفرنسية، كما رجع المؤلف إلى الأرشيف الفارسي، وقد كانت فارس دائماً قوة إقليمية مثيرة للاستغراب ولافتة للنظر، كما اعتمد المؤلف على الوثائق العثمانية في استانبول، ولم يكن للدكتور جمال زكريا أن يغض النظر عن الوثائق البرتغالية التي رصدت أوضاع الخليج في ظل الهيمنة البرتغالية، وكذا صراعات القوى بين الدول الأوروبية التي راحت تبحث لها عن موطئ قدم في الخليج. كما رجع المؤلف إلى الوثائق المصرية بالموعدة بدار الوثائق القومية.

لقد تناولت المجلدات الخمسة تاريخ الخليج العربي منذ بدايات القرن السادس عشر وحتى تسعينات القرن العشرين، ابتداء من الكويت شمالاً وحتى سلطنة عمان جنوباً، ولا أعرف عملاً علمياً تناول تاريخ المنطقة بهذا العمق وبهذه المقدرة الفائقة من التحليل والتوثيق والوعي بتاريخ المنطقة أرضاً وبشراً واقتصاداً.

لقد رأى المؤلف أن يمتد المجلد الأخير من هذه الدراسة لكي يشمل الحرب العراقية الإيرانية والغزو العراقي للكويت وردود الفعل العربية والدولية المصاحبة للغزو وصولاً إلى تحرير الكويت.

وأعتقد أنه كان يعتزم التوقف عند نهاية السبعينات من القرن الماضي، حيث استقرت الأوضاع السياسية والاقتصادية للخليج العربي، لكن الأوضاع العسكرية المضطربة التي داهمت المنطقة مع بداية ثمانينات القرن الماضي؛ قد جعلت المؤلف يعدل عن خطته لكي ينتهي عند الحرب العراقية الإيرانية، ثم جاء غزو العراق للكويت بمثابة زلزال للأمة العربية كلها مما دفع المؤلف إلى أن يواصل مشروعه لكي ينتهي به مع نهاية تلك الحرب، حيث أنهى موسوعته بنشر مجموعة مختارة من الوثائق لعل من أهمها بروتوكول ترسيم الحدود النهرية بين العراق وإيران ١٩٧٥، وكذا قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ الصادر سنة ١٩٩٠ والخاص بإدانة الغزو العراقي للكويت وكذا القرار رقم ٦٦٢ الخاص بترسيم الحدود، إضافة إلى مجموعة من الوثائق الخاصة بهذه المشكلة المعقدة، التي سببت دماراً شديداً للعراق وأضرت بالمصالح العربية ضرراً بالغاً.

الدكتور جمال زكريا قاسم يعد أول أكاديمي عربي يعني بتاريخ الخليج ويستنفد عمره بحثاً ودراسة وتحقيقاً، لذا فإن ما أنجزه يعد عملاً فريداً غير مسبوق، ولم يقتصر على دولة خليجية بذاتها بل تناول كل

تاريخ الخليج السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ابتداء من القرن السادس عشر وحتى نهايات القرن العشرين.

اللافت للنظر أن جمال زكريا قاسم الإنسان لا يختلف كثيراً عن جمال زكريا العالم والمؤرخ، سواء من حيث الدقة المتناهية في أي عمل قام به أو من حيث شخصيته القلقة التي كانت تنم عن دقة الأستاذ وشغفه الدائم لكي يكون عمله العلمي متفقا وقناعته الشخصية.

لقد تناول المؤلف قضايا تاريخية ومشاكل حدودية غاية في الحساسية، لكنه في كل ما كتب كان أستاذاً مستقلاً بفكره وبقناعته، لذا جاء عمله موضع تقدير من كل الأوساط الأكاديمية.

لقد كان رحيل هذا الأستاذ الشامخ مع نهايات عام ٢٠٠٧ بمثابة خسارة كبيرة لوطنه ولأمته ولجموع الباحثين في حقل الدراسات التاريخية والسياسية والاجتماعية، وكما عاش حياته عاكفاً في صومعته وبين أوراقه، رحل في صمت، فقد كان تدهور الوضع العربي العام موضع اهتمامه وألمه؛ لذا فقد فضّل الرحيل وكأنه أثر الاحتجاج لكن على طريقته، وكان يحلم طوال أكثر من نصف قرن بأن تتطور العلاقات العربية العربية، وأن يخرج العرب من كبوتهم، ولعل رحيله كان راحة لروحه السمحة التي لم تقبل المزيد من تردي أحوال العرب.

لكن ستبقى أعماله وموسوعته الشهيرة «تاريخ الخليج العربي» بمثابة علامة بارزة في حياتنا العلمية والثقافية، ربما لقرون عديدة قادمة.

د. محمد صابر

عرب

رئيس الهيئة العامة لدار

الكتب والوثائق القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg